أرمين شو بن، القات : تار يخ واستعمال المكيف في الجمهور ية العر بية اليمنيه (فيز بادن: ١٩٧٨)

Armin Schopen, *Das Qat: Geschicte und Gebrauch des Genussmittels Catha Edulis Forsk. in der arabischen Republik Jemen* (Franz Steiner Verlag. Wiesbaden 1978

د. حيدر ابراهيم علي *

يقع الكتاب في ٢٧٩ صفحة بما في ذ لك الملاحق وهو اساسا رسالة دكتوراة في الا ثنوغرافيا لجامعة فرانكفورت بالمانيا الا تحادية. وقد اعتمدت مادة الكتاب على بحث ميداني ، امتد لثمانية شهور (اغسطس ١٩٧٤ ــ مارس ١٩٧٥) اقام خلالها المؤلف في صنعاء كما زار مدناً اخرى في اليمن. و يحتوي الكتاب على ستة فصول، وملاحق لقصائد ورسائل عن القات باللغتين الألمانية والعر بية، ومجموعة من الصور:

يصف المؤلف في الفصل الاول جغرافية اليمن ثم يدخل من خلالها في الفصل الثاني للاقتصاد اليمني رابطا بين التقسيمات والتكو ينات الجغرافية و بين مقومات الاقتصاد. فالمرتفعات والسهول مناطق صالحة للزراعة خاصة باستعمال المدرجات وتطو ير الري الصناعي. ولليمن في مجال السدود تار يخ وتقاليد كسد مأرب الذي شيد في القرن الثامن قبل الميلاد وانهار بين عامي ٥٤٢ ــ ٥٧٠ ميلادية و يعتبر اقدم سد في التار يخ.(١)

يهتم المؤلف بامكانية اليمن الاقتصادية ذاكراً ان مساحة اليمن هي ٢٠ مليون هكتار المستثمر منها فعليا حوالي ٧٫٥٨٪ اي ١٫٥١٥ مليون هكتار والممكن استغلاله فعليا ١٠٪ اي حوالي ٢ مليون هكتار. و يعطي المؤلف جداول واحصاءات للأراضي المزروعة حسب توز يع المحافظات وطرق الري المستعملة، وللانتاج الزراعي عام ٧٣/ ١٩٧٤. ثم يشير الكاتب لموضوع بحثه اذ يأتي القات كمحصول في المرتبة الثانية بعد الحبوب مباشرة. واذا أسقطنا مساحة الاراضي المزروعة بالحبوب سوف يحتل القات ٤٥٪ من الاراضي الصالحة للزراعة (ص ٢٨). و يختم المؤلف الفصل الثاني باعطاء لمحة عن نظام الملكية و بالذات الخاصة، في اليمن.

خصص المؤلف الفصل الثالث للسكان حيث يقسم الست ملايين نسمه حسب الانتماء الطائفي والتراتب الاجتماعي و يخلص المؤلف الى ان المجتمع في اليمن، نتيجة للانغلاق والعزلة الطو يلة التي عاشها ولم يعرف هجرات الى داخله بل العكس الى الخارج، اخذ شكلا سكونيا ثابتا لحد ما. و يمكن تقسيمه حسب معطيات ومجموعات دينية واجتماعية واضحة محددة. والحركة الاجتماعية

* استاذ مساعد الاجتماع بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية

ضـعيفة نتيجة لشدة قبضة الحكم الز يدي السابق ورفضه لكل التأثيرات الخارجية، وقـوة الـنظام السياسي. الثيوقراطي (الديني) الذي اخذ شكلا جامداً نسبيا مكن من اسـتمرار يـة الـتقـالـيد والمؤسسات العتيقة وكرس انعزال فئات كبيرة وسيطرة فئة قليلة عليها.

وحسب العقيدة او الطائفة الد ينية يعتبر المجتع اليمني مجتمعا اسلاميا خالصاً عـدا أقـلـيـة يـهوديـة كـانـت في صـعـدة وغـادرت اليمن عـام ١٩٥٠. و بالتالي ينقسم المجـتمع الى ز يود ومنهم الاسرة الحاكمة حتى ١٩٦٢ و يبلغون ٤٤٪ من السكان، ثم الشافعية و يمثلون ٤٥٪، والبقية اسماعيلية.(٢)

اما الـفـئـات الاجـتـمـاعـيـة فـهي ست مجموعات حيث تأخذ اعلى فئة (السادة) وادنـى فـئـة (الاخدام) طابع الفئة المغلقة. والسادة هم الارستقراطية الد ينية التي ترجع نسبها لابناء على بن ابي طالب، وكانت الامامة مقصورة عليها ومازال افرادها يحـتـلـون المناصب العليا فمنهم كبار ملاك الاراضي وغالبية العلماء والقضاة كذ لك الاكـاديـمـيـون والـخـر يجـون. و يـعـتبرون هؤلاء انفسهم حماة التقاليد والشر يعة ومكـانـتـهـم الاجتماعية ـ السياسية تتناسب طرديأمع عـلاقة الناس بالدين. وهم يمـثـلون العنصر المحافظ تجاه العامة ولكن ثرواتهم تمكنهم من حياة حرة يتمناها الـعـامـة، لـذ لـك لـيس مـن المسـتغرب ان يتقمص العامة سلوك السادة في جلسات القات.

يـأتـي بـعـد ذ لـك القبائلون ثم الفلاحون و يمثلون ٨٠٪ ثم سكان المدن او «اهل الـسـوق». وفي اسـفـل الـهـرم الاجـتـمـاعـي يأتي الاخدام وهم سمر البشرة من اصل اثيو بي جاءوا الى اليمن منذ القرن السادس و لايحق لـهم امتلاك الاراضي او العمل عـلـيها ولا ممارسة الصناعة والعمل اليدوي لذ لك يعملون كحمالين وعمال موانيء وطرق، ومـنـهـم احـيـانـا راقـصون ومغنون. و يسكن هؤلاء جميعاً في منازل التنك او عشش منفصلة خارج المناطق السكنية.

في الـفـصل الرابع، يبدأ المؤلف معالجة الموضوع الرئيسي بوصف القات و يذكر انه مـعـروف في كـل الـشـاطـيء الشرقي لافر يقيا من اثيو بيا حتى مدينة الكاب (جنوب افـر يـقـيـا). وقـد ذ كـر البيروني والسمرقندي وجود القات في تركستان وافغانستان و يظهر انه استبدل بالحشيش (ص ٤٤). ولأ ول مرة يأتي اسم القات في كتاب لنجيب الـديـن الـسـمـرقـنـدي (المتوفى عـام ١١٢٢) واعتبره عقاراً طبياً في اواسط آسيا. و لكن مـن الصعب اثبات انتقاله من هناك الى شرق افر يقيا والراجح انهم توصلوا اليه عن تجر بة خاصة وذاتية.

أول مرجع مكتوب عن وجود القات في اثيو بيا عثر عليه في يومية باللغة الحبشية ترجـمـهـا ديلمان. و يذ كر المقر يزي (١٣٦٤ ـ ١٤٤٢) في كتابه «الالمام باخبار من بـأرض الحبشه من ملوك الاسلام» ان سكان احدى المناطق (محافظه شوا الحالية)

يزرعون الى جانب قصب السكر نباتا يسمى القات ليس له ثمار ولكن يمضغون اوراقه التي تشبه اوراق صغار اللارنج وهو ينشط الذ اكرة حيث يسترجع الانسان ما نسى و يشعر بالنشوة ولكن يقلل الشهوة للاكل والجنس والنوم.(٣)

يتضح من هذا ان القات كان معروفا منذ فترة قبل هذه الكتابات. ومن اثيو بيا اخذ طر يقه الى اليمن، ولكن متى؟. في رواية وجدت طر يقها الى الادبيات الاور بية تقول ان ذلك تم خلال الغزو الحبشي (٥٤٠ م). ولكن هذا التار يخ يبدو مبكراً وذ لك لعدم ورود ذ كره في المصادر العر بية لا عند الاصطخري في «المسالك والممالك» (سنة ٩٥٠) ولا ابن حوقل في «صراط الارض» (١٩٧٧) رغم وصفهم لمنطقة تهامه. ولم يذ كره المقد سي في «احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم» (٩٨٨)رغم تجواله في اليمن، ولا الحمداني في وصفه الجز يرة العر بية ووطنه اليمن عند ذكره لانواع النباتات في اليمن.(٤)

في رواية اخرى أن أحد الاولياء في ز يلع (جنو بي جيبوتي) و يد عى ابراهيم او زار بيتا اتى من حضرموت لنشر الاسلام في اثيو بيا واصبح مدمنا للقات وادخله اليمن عام ١٤٣٠/٢٩ (٥) وعن ورود ذ كر القات في هذه الفترة يرجع المؤلف لكتاب الجز يري «عهدة الصفوة في حل القهوة» حيث يقول ان علي بن عمر الشاذلي ادخل استعمال القهوة ومشرو بات القات (اي القهوة القاطية أو الكفتا) وانتشرت حتى عدن. (ص ٤٨) و يورد المؤلف ايضا رواية ثالثة عن العمري من سفره «مسالك الابصار في ممالك الامصار» تقول بدخول القات في نهاية القرن الثالث عشر و بداية القرن الرابع عشر. وفي مخطوطه ابن حجر الهيثمي نقل عن ابن كبان (١٣٧٤ – ١٤٣٨) تزكية للقات – رغم عدم وجود الاصل – فهو لا يسرد تجر بة ذاتية مع القات ولكن يذ كر روايات شفهية ومكتو بة عن القات وهذا يعني انه يعالج شيئا موجوداً اصلا قبل هذه الكتابات والروايات.

في الأدبيات المعاصرة يذ كر بعض الكتاب شواهد على وجود القات في القرن الثالث عشر. فالشاعر عبد الله البردوني يقول ان ابن علوان من شعراء القرن الثالث عشر استعمل القات كبديل للنبيذ وتركه.(٦) وعند قاسم غالب احمد ان اول المعلومات التار يخية عن انتشار القات اتتنا من شعر الشيخ المصراوي الذ ي عاش في القرن الثالث عشر وعن استعماله خاصة عند العلماء والصوفية.(٧)ومع ان بعض الرحالة كابن بطوطه وابن المجاور.. في رحلاتهم لليمن، لم يذ كروا النبات واستعماله ولكن هذا لا يتناقض مع المعلومات السابقة لان القات كان مقصوراً على الصوفية والعلماء ولم ينتشر بين العامة حتى يعرفه او يصادفه الرحالة والكتاب كظاهرة عامة.

خلاصة القول أن معرفة القات في اليمن تمت بعد اسلام المرتفعات الحبشية في النصف الاول من القرن ١٣. و يرى المؤلف ان المبشر ين المسلمين عمموا تجر بة

القـات بين اخوانهم في اليمن كنوع من الوصفة السر ية لكي يتمكنوا بواسطتها من تخفيف الالتزامات الد ينية. و يمكن تفسير ذ لك بتحر يم الخمر عند المسلمين.

وحسـب مـا أورده البردوني، كان اتباع الصوفيه والعلماء هم أول من عرف تأثير القـات. وهو عند هم هبة من الله للمتعة ومن خلاله تتكثف التجر بة الروحية. وكما يقول احمد العقيل

تشـاهـد امورا مـن غـر يـب مـعـارف　　　من الحضرة العلياء تأتيك ترفل

(ص ٢٤١)

وترتـفـع مـكانة القات عندهم حيث تقرب قوته الكامنة من الله. وتقول اسطورة ان الخضر اتى بـالقات من جبل قاف واعطاه لذي القرنين (الاسكندر) قوتاً لا تقياء اليمن ولذ لك قصر على الا تقياء (ص ٥٢). و يتسفيد المؤلف من الشعر كثيراً في هذا المـوقـع لا ثبـات حـقـائـق اجتـمـاعـيـة مثل حصر القات بين السادة لقر بهم من الله وابـعـاد الـعـامـة. وهـذا يـدعـمـه سبب اقتصادي جعل الاغنياء هم اكثر المستمتعين بـالقات لقلة كمياته وارتفاع تكلفته. و يعقد المؤلف مقارنة بين اسعار القات والاجور نقلا عن قانون صنعاء للصباغي الصادر في القرن الماضي.

ومع تدهور الاقبال على شراء البن اليمني بسبب قيام مناطق جديدة بزراعة البن لكي يكفي حاجة السوق الاور بية، يضاف لذ لك اسباب محلية كاحتكار البن على يد الشر يف ابن عر يش ثم مجيء الاحتلال العثماني، كل هذا تسبب في تقلص زراعة البن وازدادت زراعـة الـقـات الـذي ينمو في نفس مناخ البن مع عدم حاجته لعناية اكثر واهـتـمـام مثل البن. ونتيجة لانتشار القات، اصبح في مقدور المواطن العادي الحصول عـلـيـه، ولكن هذا لم يقلل امتيازات الاغنياء بحصولهم دوماً على الانواع الجيدة. ومـع اخـتـلاف الاهـداف، كـمـا يـقـول المؤلف ـ فالطبقات العليا تتعاطاه لـلاسـتـمـتـاع والـبـهـجـة ولـكـن العامة تستعمله بقصد ان ينشطهم للقيام بالاعمال الصـعـبـة بطر يقة احسن. وحسب تقدير المؤلف يتعاطى القات ما لا يقل عن ٩٠ ــ ٩٥٪ من الناس هناك (ص ٦٠).

وفي الـصـفـحـات الـتـالـيـة، يـعـطـي الكاتب وصفاً لزراعة القات وانواعه وتسمياته وطرق زراعـتـه واحسن الاوقات لذ لك وقطفه وحزمه واسعاره المختلفة التي تعتمد على دخول المشتر ين و بالتالي لكل فئة اجتماعية مستوى معين من القات.

امـا في الجزء الخاص باستعمال القات فيقرر الكاتب ان طرق استعماله مختلفة وتـعـتـمـد على الظروف المحيطـة، لـكن اكثرها انتشاراً هو مضغ القات. وهناك من يسـتـعـمـلـه مـغـلياً كالشاي أو مهدئات للمعدة وللعلاج عامة. و يورد المؤلف كذ لك خـصـائـص الـقـات الـكـيـمـيـائـيـة والـطـبـيـة. امـا آثاره فتعتمد على الكمية والنوع والاسـتـمـرار يـة. فـالـكـميات القليلة، وفي فترات متقطعـه، قد تسبب نوعاً من النشوة والابـتـهـاج والانـطـلاق في الـحـديث دون خجل ورغبة في الجنس والعمل وتقل معه

الحاجة للنوم والطعام غير ان الكميات الكبيرة و بطر يقة منتظمة تسبب آثارا واعراضا معاكسة تماماً مثل النرفزة وعدم النوم والتهو يم الخيالي وعد م القد رة على العمل وتسبب نوعاً من التبلد والخمول الذ هني. اما عضو يا فالقات هنا يرفع ضغط الد م والقلب و يضر بالرئة. ومن وجهة النظر اليمنية، يمر الشخص بعد التناول بمراحل عدة مثل التنبه ثم التراخي ثم مرحلة القلق النفسي و يتميز بالصمت والوجوم والشرود الذ هني واخيراً يأتي رد الفعل و يصاب الشخص بصداع وارهاق الاعصاب والخمول.

في الباب الخامس، ينقلنا المؤلف بطر يقة شاعر ية الى اجواء القات حين يصف جلسات القات بتفاصيل دقيقة و ملاحظة حادة لا يفلت منها طرف متعلق بالجلسة او تكو ين المشاركين وشكل الجلسة وطر يقة ومكان الجلوس والتناول و يصف مواقيت واخلاقيات واتيكيت وتوقعات جلسة القات.و يذ كر المؤلف ان شتى الموضوعات تناقش في الجلسة. والذ ي يجلس في المقدمة يدير الجلسة. وقد اعلمه احد مخبر يه ان انقلابي ١٩٤٨و١٩٦١ خطط لهما بهذه الطر يقة. (١٣٨) كذ لك تناقش الخلافات ايضا وتشكل لها لجنة للحل و يصدر متصدر الجلسة الحكم. وليس هناك قوانين مسبقة لكل ذلك ولكن الاحد اث والمحيط يمكن ان يحددا كل شيء في مجرى الجلسة.

يقدم المؤلف لجلسات القات وفقا لمقولات التحليل النفسي و يعتبر ان الجلسة تعني لكل واحد نوعاً من النكوص. وهو موقف تجذيري يمكن الشخص من اطلاق الأنا من قيودها حيث يتحلل الشعور بالآخر ين ومما قد يفرضونه من ضبط على الفرد، وتتداخل الرؤى و ينهدم الاحساس بالواقع الذي يتبدل بالاحلام والرغبات، وتسقط الحواجز بين الفرد والآخر ين، و يظهر شعور بالتوحد يعقبه في نهاية الجلسة شعور بانعد ام الامن. ثم ان اساس الجلسات هو التناول الجماعي ــ القبيلة، والا تصال بالآخر ين والارتباط بعلاقات انسانية متبادلة مما يقوى تأثير الجماعة لان العلاقة تتجد د عن كل لقاء وتصبح حميمة وملزمة.

وعلى صعيد آخر يعرض الكاتب المناقشات حول القات و يذ كر انها كانت في البداية د ينية بحته حول كون القات حلالا ام حراماً. ثم يورد بعض آراء الفقهاء و يقسمهم الى فئتين احداهما رأت ان القات ليس مضراً و بالتالي يعتبر حلالا والاخرى رأت العكس. و يصل المؤلف في تتبعه لهذ المسألة الى ان الفئة الاولى انتصرت في القرن السابع عشر واعتبر القات ليس حراماً. وفي فترات لاحقة نوقش القات حسب الاضرار الاقتصادية والصحية والاجتماعية و بالذ ات تجد حلا حاسماً للمشكلة ولكنها فشلت في ذ لك.

و يختتم المؤلف كتابه بالقول ان ثورة ١٩٦١ جعلت اليمن يتصل بالحضارة العالمية ومنجزاتها و بالتالي حدث تغير مس كثيراً من جوانب الحياة في اليمن

باستثناء القات لاسباب عدة منها ما هو اقتصادي فالقات يعتبر محصولا نقدياً مربحاً وبخاصة بعد ان احتكر كبار الملاك زراعته وتسويقه. وهذه الطبقة تؤثر على بقاء القات لقيمته الاقتصادية لها. كما ان تناول القات انغرس عميقاً في المجتمع اليمني منذ القرن الرابع عشر واصبح جزء من الحياة الثقافية والاجتماعية كما يظهر من جلسات القات ومضمونها الاجتماعي وما يتبعه من انتاج أدبي أو مناقشات... الخ. أما مسألة ضرر القات او نفعه فهذا يعتمد على نوعية القات المرتبطة بدورها بالطبقة الاجتماعية.

واخيراً فان الكتاب دراسة اجتماعية رائدة بالنسبة للمكتبة الالمانية ان لم يكن الاوربية عامة. وحتى بالنسبة للدراسات الاجتماعية العربية فهو رائد من ناحية موضوعه وادوات بحثه. فقد درس المؤلف القات من زاوية انثروبولوجية وجعل القات بؤرة عمله الاكاديمي وعالج العلاقات الاجتماعية والاقتصادية من خلال صلتها بالقات. وهي ليست دراسة اثنوغرافية ــ وصفية تقليدية اذ اعتمد الكاتب على الاحصاءات والمقابلات والمشاركة واستفادمن الانتاج الادبي كثيراً. ومع ذلك يؤخذ على الكتاب عدم الحاق قائمة بالابجدية العربية ومقابلها اللاتيني رغم انه نوه فقط بمراجعه دون ان يورد قائمة بذلك وكان يمكن ان تكون دراسة مقارنة لو اتى بذكر تجربة اليمن الديمقراطي في منع القات وطريقة محاربته ولكن يبدو أنه قصر دراسته على اليمن الشمالي واعتبر تاريخ الظاهرة مشتركا.

الحواشي الايضاحية

(١) Glaser, Reise nach Mârib, p.68, (Wien 1413).

قلسير. **كتاب رحلة إلى مارب،** (فينا: ١٩١٣)، ص ٦٨.

(٢) Harold Ingrams, The Yemen: Imams, Rulers and Revolution, London, 1963, p.33.

(٣) المقريزي، **كتاب الالمام.** تحقيق رينك (ليدن: ١٧٩٠)، ص ١١.

(٤) مرجع المؤلف كتاب «**جنوب الجزيرة العربية حسب وصف الحمداني لشبه الجزيرة العربية**

Sudarabien nach al-Hamdani's "Beschreiburg der arabischen Halbinsel." Leizig, 1442

وطبعة عام ١٩٦٦.

(٥) **هو احد اربعة واربعين وليا اوردهم فاجنر:.**

Wagner, Ewald: Eine Listeder Heiligen von Harar, in: Zeitschrift der Deutschen Morgnlandischen Gesellschaft Bd 123 *1973, PP.* 269 - 292

(٦) **عبدالله البردوني: «القات من ظهوره إلى استعماله» في اليمن الحديد عدد ٣ سنه ١٩٧٢ ص ٤**

(٧) غالب احمد. «القات في ارض القات» في تطور الخدمات الصحية باليمن ٦٢ ـ ١٩٦٧ (القاهرة: ١٩٧١) ص ٢٤٦ ومايليها.